

بمناسبة افتتاح معرض النشرات الإسلامية
في قصر الأونيسكو في بيروت، 18/01/2010

النشرات الإسلامية وتحقيق المخطوطات

رضوان السيد

بلغ عُمرُ سلسلة المخطوطات هذه التي تُصدرها جمعية المستشرقين الألمان زُهاءَ الثمانين عاماً. وقد صَدَرَت أولاً من اسطنبول في العشرينات من القرن العشرين، ثمَّ انتظَمَ صدورُها من بيروت - باستثناءاتٍ قليلة - منذُ الستينات من القرن العشرين أيضاً. وأودُّ في هذه العُجالة الإشارة إلى عدة أمور أراها مهمةً باعتبارها تمهيداً لهذا المعرض النادر الذي دعاني الصديق **Stefan Leder** للتحدث إليكم فيه. والمسائل التي أقصدها أربع وهي: الألمان ونشر المخطوطات العربية، وصناعة التحقيق وكيف يُصبحُ المخطوطُ كتاباً، ونشاطات المعهد الألماني ببيروت في هذا المجال، وإسهام اللبنانيين والعرب في نشر المخطوطات وأعمال المعهد.

المخطوط كما يدلُّ عليه إسمُهُ هو نُسخةٌ لكتابٍ أو رسالةٍ أو وثيقةٍ بخطِّ يد المؤلف أو أحد النُساخ للكتاب أو الرسالة أو الوثيقة عبر العصور الكلاسيكية

السابقة على عصر الطباعة، الذي بدأ في أوروبا في القرن الخامس عشر، وعند العرب في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. والعربُ أمةُ الكتابِ بحقِّ، فالمخطوطاتُ التي جرى تداولُها بالعربية بين القرن التاسع الميلادي، والقرن التاسع عشر، تصلُ إلى حوالي العشرين مليوناً. والباقي منها حتى اليوم قد يصلُ إلى المليونين ونصف المليون. وهي تشملُ سائر فنون التأليف، بيدَ أن الغالبَ عليها كُتِبَ الفقه، وكُتِبَ اللغة والأدب، وكُتِبَ التاريخ. وهذه الأنواع الثلاثة عناوين عريضة، تحتها فروعٌ وتفصيلٌ كثيرةٌ، تقع تحت كلِّ فرعٍ أو تفصيلٍ ألوف المخطوطات.

وتبدأ قصة الأوروبيين والألمان مع المخطوطات العربية والإسلامية في القرن الخامس عشر. وذلك بنشر القرآن وترجماته ونشر نصوص الكتب الطبية والرياضية والكيميائية والفلسفية. بيدَ أن ما يُعرفُ بالنشر العلمي ما استمرَّ واكتملَ إلا في القرن التاسع عشر. ووقتها كانت عشرات الألوف من المخطوطات العربية والإسلامية قد جمعتُ في مجموعات ضخمة بمكتبات الجامعات والدول وموارث الأفراد. وهذا الاجتماع يعني بحدِّ ذاته اهتماماً بالتراث العربي. إنما النشرُ العلميُّ احتاجَ إلى نقطتين إضافيتين: الاهتمام الأوروبي بالكلاسيكيات اليونانية والرومانية واللاتينية، وتطوير قواعد لنشر نصوصها المخطوطة، والإقبال الأوروبي المتعدد الأوجه والاهتمامات على المشرق العربي والإسلامي، وظهور فئة المستشرقين، أي المتخصِّصين بالحضارة العربية الإسلامية، وبالتاريخ العربي الإسلامي، وقبل ذلك وبعده باللغة العربية، باعتبارها لغةً بارزةً ضمن اللغات السامية، وباعتبارها لسانَ حضارةٍ

عالمية كبرى.

ولنمض إلى الجانب التقني أو العملي لنشر المخطوط العربي. لهذه الجهة شارك علماء الكلاسيكيات الأوروبية منذ القرن السابع عشر - كما سبق القول - في نشر الباقي من التراث الكلاسيكي اليوناني والروماني. وكان ذلك جزءاً من صعود الوعي الأوروبي بالذات، وأنهم وارثو اليونان والرومان، ثم إنه كان وما يزال إهتماماً بالنصّ الديني المسيحي واليهودي، والذي وصل إلى أوروبا باللغات اليونانية والعربية واللاتينية، كما وصل الموروث اليوناني إلى الأوروبيين منذ القرن الثاني عشر وفي مرحلته الأولى من خلال العربية والعبرية. وهكذا وطوال قرنين أو أكثر طوّر الأوروبيون طرائق وتقنيات لنشر مخطوطات حضارتهم وما تُرجم إليها. فالنصّ الواصل قد يكون بسبب تقادم الأعصار، ولعدم وجود الورق "قد وصل جزئياً" وليس كُله، ثم إنّ كلّ التراث الواصل تقريباً هو منسوخات متأخرة كثيراً عن زمن التأليف. وربما وصل باللاتينية القديمة وليس باليونانية. وقد يكون الواصل عدة منسوخات مختلفة الأزمنة للنصّ الواحد، ويختلف الناسخون في الدقة. ثم إنّ هناك نصوصاً منسوبة زوراً أو انتحالاً، فكيف يمكن التمييز بين الأصيل والدخيل. وربما كانت أصول هذا الكتاب أو ذاك لأرسطو أو سوفوكليس قد ضاعت تماماً، ولم يبقَ لنا غير ما تُرجمَ إلى اللاتينية من هذا النصّ أو ذاك.

كُلُّ هذه الخبرة، وكلّ تلك المعالجات لمشكلات النصوص القديمة، نقلها المستشرقون الألمان والفرنسيون والبريطانيون والهولنديون والإيطاليون إلى عملهم في نشر النصوص العربية والفارسية والتركية. ونحن محظوظون فيما

يتعلق بالتراث العربي أكثر بكثير من اليونان واللاتين. فحضارتنا الكتابية بالعربية أحدثُ بكثير، والكثرةُ الساحقةُ مما وصلنا لا يزيدُ عمرهُ على الثمانية قرون.

من هذه الثروة التراثية العظيمة نشر الالمان حوالي الألفين والستمائة عنوان منذ أواسط القرن التاسع عشر وحتى اليوم. وقد تعددت الشخصيات المحققةُ عبر أكثر من قرنٍ ونصف، كما تعددت مواطن النشر. لكنّ أكثر المواطنين قدماً هو مطبعة بريل بلايدن في هولندا، وأكثر المواطنين في النصف الثاني من القرن العشرين المعهد الألماني للأبحاث الشرقية ببيروت، وسلسلة النشرات الإسلامية بالذات. وهناك فرقٌ بين العناوين والمجلدات أو الأجزاء. فالعناوينُ قد لا تزيدُ على الخمسين، لكنّ المجلدات لا تقلُّ عن المائتين، لأنّ الكتاب قد يصل إلى عشرات الأجزاء مثل الوافي بالوفيات للصفدي، ومثل كثر الدرر لابن الدواداري، ومثل أنساب الأشراف للبلاذري.

إسهام العرب و اللبنانيين: أسهم في النشرات الإسلامية عشراتٌ من اللبنانيين والعرب مثل محمد يوسف نجم وإحسان عباس وعبد العزيز الدوري ورمزي بعلبكي ووداد القاضي وأحمد حُطَيْط وماهر جرّار وإبراهيم شَبّوح وعدنان البخيت ومحمد الحجيري ورضوان السيد. وقد أفاد هؤلاء جميعاً من طرائق المستشرقين الألمان في نشر النصوص، كما أفادوا من مكتبة المعهد الألماني ببيروت، ومن تسهيلاتهِ العلمية والدراسية. وهكذا فإنّ المعهد الألماني يُحَقِّقُ شراكةً علميةً محمودةً بين العلماء العرب والالمان في مجالاتٍ عدةٍ يأتي في طليعتها نشر النصوص من ذخائر التراث العربي.